تاريخ الإرسال: 2011/10/26 - تاريخ النشر: 2011/11/28

تجربة الكتابة بين الشعر و التصوف عنـد أدونيس

عيسى أخضري

قسم اللغة العربية وآدابها

جـامعة الجلفة

احتوت التجربة الشعرية المعاصرة على لغة تميزت-إلى حد كبير-عن لغة التجربة الشعرية القديمة إذ غيرت في مدلولات مفرداتها وتجاوزتها لتوجد لها معان تفوق حجمها وهذا التغير سببه الاختلاف في التجارب والتطور في الحياة اليومية، لذا ضاق الشاعر من التقليد ومحاكاة الغير، فأوجد لذاته معجما يحتوي على لغة تنوب عن أحاسيسه ووجدانه وعن آلامه ومعاناته وعن أحلامه وآماله .

أفلتت اللغة من قيد العادة، متقدمة في قراءاتها، متسعة في دائرة معانيها فكانت "اللغة وحدها المكان الحي، الحر، اللانهائي، إنها الحضور الغامر الذي لا يرد"[1] أين وجدها الشاعر حبلى بالمعاني التي تشفي غليله بالتعبير عن خلجات ذاته المثقلة بهموم العصر.

بهذا؛ المسلك الذي انتهجته اللغة في تفجير مفرداتها والإتيان بمعاني مخالفة للمعاني المعهودة، كانت لها مكانة مرموقة في التجربة الشعرية المعاصرة - التي هي بدورها- ثائرة على كل ما هو تقليدي، طامحة إلى التجديد والبحث عن لب وجوهر الكلمات ومكنوناتها الأصلية.

اتسعت رقعة استخدام اللغة في تجارب عديدة : منها الصوفية أين تدفقت الألفاظ الصوفية في قالب شعري لتجعلها " لغة كونية تصل إلى مطابقة اللامتناهي (الحقيقة، المعنى،اللب) مع المنتهي (الصورة)[2] ؛ تمزج بين الباطن والظاهر تبرز اللامرئي في المرئي، إذ هي رحم خصب تنمو فيه الثنائيات وتتحد لتبرز الغامض وتكشف عنه.

كما تتيح ـ الصوفية ـ للغة الوفود في مقامات غير مقاماتها، تحتضنها مدلولات أخرى إذ " تصبح اللغة مدارا لآفاق ذات دلالات كثيرة، وينفتح القارئ على رغبة اللغة ويبدأ البحث عما هو مغيب فيها[3] لأنها لغة استشرافية تفتح العديد من النوافذ لتطل على المكنون، المحجوب فهي ليست مطلوبة لنفسها ـ فقط ـ وإنما لما تتضمنه وتخبؤه في أحضانها.

فالتجربة الشعرية والتجربة الصوفية متشابهتان كثيرا من حيث منطلقهما، فالأولى التحام ما هو نفسي، روحي، ذاتي بما هو واقعي أما الثانية فهي البحث عن الغامض المبهم.

انطلاقا من البائن الجلي، فكلتاهما تسعى وراء الربط بين الظاهر والباطن، المرئي واللامرئي؛ من هذا المنطلق مزج الشعراء المعاصرون بين التجربتين – الشعرية والصوفية- راكبين اللغة كباخرة ترسو بهم في بحر المعاني والدلالات.

نجد علي احمد سعيد من بين الراكبين التواقين إلى البحث الدائم عن مسالك جديدة، فالتجربة الشعرية عند أدونيس تعني الولوج في شبكة لانهائية من الاحتمالات والإشارات والإضاءات الكونية" [4]، فهو يرمي باللغة إلى الماوراء ، لرؤية الخفي، لإضاءة، العتمة المحيطة بالعالم، لنزع الغمامة عن الأمة التي ما زالت تعيش فترة النقاهة:

والوطن المفتوح مثل كفن

يمامة تذبح في ينبوع

رأيت فيه أمة...

رأيت فيه القمر المقطوع

من أوجه الأطفال

والزمن المنكس المخلوع

والزمن الآتي كالزلزال..[5]

هذه الأوضاع المزرية والتعيسة لأمة الشاعر جعلته يبادر في دفع عجلة التقدم

والتطور، والتطوع، بتغيير الرؤى نحو الأفضل والأحسن، بإنتاج شعر يحمل في سطوره خيالا ووجدانا معبرا عن المعاناة والمأساة بلغة جديدة، إيحائية، نزعت ثوب التقليد والمحاكاة .

و من مظاهر التجديد في شعر أدونيس، استضافته للغة الصوفية في شعره لأنه وجدها وسيلة أولى للإفصاح عن الأسرار ومرتعا مهما للوجدان، فرحاب الصوفية واسع يحمل بين طياته وجدان الشعراء ورؤاهم الوجدية، فأدونيس يستحضر التجربة الصوفية كأنه عاشها.

برفض أدونيس للتقليد وثورته على القديم، أوجد خليطا يجمع بين التجربتين. فالشاعر لا يفترض أن يكون صوفيا. إذ تحتوي التجربة الشعرية، التجربة الصوفية مفرغة محتواها الصوفي في قالب شعري، لأن أدونيس ضاق باللغة المعيارية الميتة فيقول في ``الأغنية`` :

خرساء أو مخنوقة الحروف

أو لا صوت

أو لغة تحت أنين الأرض

أغنيتي للموت

للفرح المريض في الأشياء للأشياء

أغنيتي للرفض.

يا كلمات الرعب والدواء

يا كلمات الداء[6]

فهو يتهم الحروف بالبكم، هي صوت بلا صوت ، لأنها لم تعبر، لم تؤد ما يرمي إليه ، فلقد خانته الكلمات فأصبحت داء يعاني منه .

استعانة أدونيس بالتجربة الصوفية كانت لضرورة ملحة ولرغبة جامحة فيه

تدفعه إلى النهل من معين الصوفية لأنها تحفر في الدلالات الرمزية للحروف لتكشف عن معانيها الخفية[7]، منتقلة من الظاهر إلى الباطن، من الخارج إلى الداخل، لأنها ترى أن تفكيك اللغة يعد كشفا لسر الوجود.

أدونيس يستخدم سجل مفردات الصوفيين لأنها " لغة يستعيرها ويحيد بها عن استخداماتها التي وضعت لها في الأصل من هنا تكشف لنا خصوصية أخرى تميز أدونيس عن غيره من الشعراء ففي حين يستعير الآخرون لغة المعجم ليحيدوا بها ضمن اللعبة والتجاوز عن الوجود ´ الفعلي للأشياء [8]، يستخدم هو اللغة الصوفية بجنوحها نحو الغموض ، وانبهامها، وانبثاقها عن اللاوعي، وسفرها الدائم للكشف عن الجزء المبهم في الذات الإنسانية.

تحضرنا لغة أدونيس الصوفية المثيرة الموحية، المتأملة الكاشفة فيقول في "الأنجم":

أمشي وتمشي خلفي الأنجم

إلى غد الأنجم

والسر والموت وما يولد

والتعب الأسود

تميت خطواتي وتحي دمي

أنا الذي لم تبتديء دربه

بعد، ولم يرصد له منجم

أمشي إلى ذاتي

إلى الغد الآتي،

أمشي وتمشي خلفي الأنجم[9]

نما حب الاستكشاف والإطلاع في نفسية الشاعر، باحثا عن الحقيقة، وعن مواطنها الكامنة في ذاته، سالكا في مشواره الاستطلاعي درب الصوفية، لأنه لا تصوف في الثبات والسكون.

يتقاطع الشاعر والصوفي في لحظة المخاض، أين يعطل الصوفي إحساسه بالواقع ويصل إلى درجة الفناء وهنا يتساوى مع الشاعر في حالة الإلهام الشعري معتمدين على اللاوعي، فارين من الواقع وهواجسه، معبرين عن الحياة والوجود والعدم، يقول أدونيس:

أحيا ، أسوق العمر في انتظار

سفينة تعانق الوجود

تغوص للقرار

كأنها تحلم أو تحار

كأنها تمضي ولا تعود[10]

إنه يغرف من الصوفية، لا لكي ينتمي إليها، وإنما لتنتمي هي إلى عالمه لتعبر عن وجده و ذاته المتلهفة إلى التجديد وخرق الحواجز فهي لغة كشف وإضاءة وتبصر يستعين بها في ابتكاره المتواصل المتجدد في أحطابها من خضرة مخزنة وعما وراء رمادها من أنهار فوارة فهو يلجأ إلى الحلم والخيال برؤى صوفية مشحونة بالوجد والإشراقات الباطنية ، هاربا من الواقع الحسي بمادياته وتناقضاته ليعبر عن الحياة والموت والوجود والعدم .

إن اللغة الصوفية عند أدونيس تقف على عتبات الكون لتحاوره بنبرة شفافة راغبة في التحام الذات مع الواقع اللامرئي وإلغاء الحدود بين الأنا والمطلق، ينظم أدونيس "آخر السماء":

يحلم أن يرمي عينيه في

قرارة المدينة الآتية

يحلم أن يرقص في الهاوية

يحلم أن يجهل أيامه الآكلة الأشياء

أيامه الخالقة الأشياء؛

يحلم أن ينهض أن ينهار

كالبحر – أن يستعجل الأسرار

مبتدئا سماءه في آخر السماء[11]

إن الشاعر في أسلبته للتصوف ابتعد عن الواقع المرئي لتحتضنه الرؤيا والخيال والحلم ليعيش لحظة الإبداع مع الصوفي في لحظة شطحه وانخطافه إلى عالم الوجدان والقلب والعاطفة والخيال، لا منطق ولا عقل فيه، متحدثا بلغة هزها هزا عنيفافأسقطت ما كانت تخفيه:

يكفيك أن تعيش في المتاه

منهزما أخرس كالمسمار

لن تلمح اللّه على الجباه؛

يكفيك يا مهيار

أن تكتم السر الذي مخاه

يكفيك أن ترى

يكفيك أن تموت من بعيد.[12]

إن تقمص أدونيس لحالة المريد الواجد، أنجب عبارات مستغربة على التجربة الشعرية لكنه "جعل للشعر العربي مكانة عالمية"[13] ورقى مكانته الشعرية فهو شاعر في المقام الأول، وصوفي ساحر وباطني في المقام الثاني[14]

هوامش البحث:

(1) أدونيس: النص القرآني وآفاق الكتابة بيروت – دار الآداب – ط1 1993 ص 87.

(2) سمير التقي : محاولة في التجربة الفنية – علي آيت أوشان – الكتابة الصوفية واحتجاب المعنى – قراءة نقدية في ديوان

مجمع الأهواء 2003 www.google.com ص : 40.

(3) عبد الله إبراهيم – سعيد الغانمي – عواد علي : معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة) – بيروت – المركز الثقافي العربي الدار البيضاء –ط2 – 1996 – ص :143.

(4) هدية الأيوبي: زمن التحولات في شعر أدونيس الأفق الأدونيسي مجلة فصول ـ مصر ـ ع2م16ـ 1997،ص:41.

(5) أدونيس علي أحمد السعيد : الأعمال الكاملة 2 – بيروت دار العودة – ط 4 1985ـ ص:408.

(6) أدونيس: أغاني مهيار الدمشقي – بيروت منشورات مواقف ط2ـ 1970 – ص:94.

(7) علي آيت أوشان : الرؤية ورمزية الحرف – الكتابة الصوفية واحتجاب المعنى ص: 05.

(8) صلاح فضل : أساليب الشعرية المعاصرة – القاهرة دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – دط – 1998ـ ص:173.

(9) أدونيس : أغاني مهيار الدمشقي – ص: 167

(10) المصدر نفسه ص:191

(11) أدونيس: أغاني مهيار الدمشقي ص: 28

(12) المصدر نفسه – ص: 75ـ74.

(13) عبد الحميد جيدة: أدونيس بين مؤيديه ومعارضيه – الأفق الأدونيسي مجلة فصول ـ مصر ع 2 م 16 – 1997 ص100.

(14) وفيق خنسة: دراسات في الشعر الحديث – دار الحقائق ط1 – 1980 – ص : 31